يقولون "عمياناً و... "

بقلم: أدما حبيبي

يقولون: "إن الحب أعمى" والعلم الآن يؤكد هذه المقولة. وما قصة الشاب الذي قرأت عنه في إحدى الصحف العربية إلا دليل على ما يقال. فقد جرت أحداث القصة مؤخراً في مدينة صور في جنوب لبنان، إذ قام شاب متيّم هيمان بشنق نفسه أمام نافذة حبيبته لأن والديها رفضا تزويجه من ابنتهم لأنه كان يعمل لحَّاماً ولا يملك شروى نقير. وقال المعلّق على الخبر بأن الحبيبة شوهدت واقفة تبكي عند نافذتها في الصباح حين رأت حبيبها معلّقاً على الشجرة مقابل بيتها. وقيل شنق نفسه لأنه يريد أن يبيّن لها كم كان يحبها ويريد أن يحتج على عدم رضى أهلها على زواجه منها، فشنق نفسه لوعةً واستنكاراً. وهنا سرعان ما وجدت نفسي ألقّب هذا الشاب الوله ب "مجنون ليلى" أي قيس وهو أحد الشخصيات المشهورة في قصص "الحب العُذري" في الشعر العربي المتداول في مجتمعاتنا العربية.

وفي دراسة علمية جديدة أجراها العلماء في كلية لندن الجامعية أثبتت أن الأشخاص الذين يقعون في الحب ليسوا عمياناً فقط بل وحمقى أيضاً ولا يفكّرون على الإطلاق. وتبيَّن بعد إجراء عدد من المسوحات الدماغية عن طريق استخدام التصوير الوظيفي بالرنين المغناطيسي لعدد من المحبين عند عرض صور أحبائهم أو أصدقائهم أن الأشخاص الواقعين في الحب أظهروا نشاطاً أقل في أجزاء الدماغ التي تتحكَّم في التفكير وتسيطر على المزاج. بينما تركَّز أكثرُ النشاط في المناطق الدماغية المسؤولة عن العواطف والأحاسيس والمشاعر عند مشاهدة صور الأحبة.

كما وجد الباحثون أن الحب ينشِّط مناطق دماغية قليلة وصغيرة جداً على عكس الاعتقاد السائد بأنه يؤثر على أجزاء أكبر وذات مسؤوليات أكثر. واستندت الدراسة على متابعة الحالات العاطفية والمسوحات الدماغية لسبعة عشر متطوعاً، أحد عشر من الإناث وستة من الذكور في العشرينات من العمر، ممَّن وَصفوا أنفسهم بأنهم واقعون في حب حقيقي وجارف، بعد عرْض مجموعة من صور أحبائهم عليهم وصور أخرى لأصدقائهم المقرّبين. وأظهرت النتائج أن الحب نشَّط أجزاء الدماغ المسؤولة عن الحدس والبديهة والشعور باضطرابات المعدة والاستجابات الدوائية . ولكنه ثبَّط نشاط المناطق المسؤولة عن التفكير والإدراك.

حقوق الطبع محفوظه لخدمة الاذاعه العربية ٢٠٠٦-٢٠٠٣
Copyright 2003-2006 Arabic Broadcasting Service

وقال الخبراء إن هذه الدراسة تؤكد بصورة قطعية أن الحب هو أحد وظائف الدماغ وتعطي تفسيراً معقولا للسبب الذي يكمن وراء التصرفات الغبية والحمقاء للمحبين الذين لا يستطيعون الحكم جيداً على الأشياء بسبب ضعف نشاط المنطقة الدماغية المسؤولة عن ذلك. وإذا كان الحب يعطِّل تفكير الإنسان يرى الباحثون أنَّه من المستحسن عدم الوقوع في الحب إذا كنت طالباً أو معلماً أو محاضراً جامعياً أو عالماً. إلى هنا تنتهي الدراسة.

فمَن يستطيع الوقوع في الحب إذن؟ ليس الذين يستخدمون عقولهم بل الذين تُملي عليهم عواطفهم وأحاسيسهم قراراتهم؟! على أي حال فإن الإنسان عندما يتصرف انطلاقاً من عواطفه الجياشة وأحاسيسه المرهفة وميوله الجامحة هو شروى ذلك الشاب و لابد أن يتهور .فالحب كما قالت الدراسة يعطّل التفكير وهكذا تطغي المشاعر والأحاسيس على العقل والمنطق.

وعندما نفكر بتركيب الإنسان لابد لنا أن نتعجب. فنحن مخلوقات فيها العقل والمشاعر وكلٌّ يكمّل الآخر. ولا يستطيع أحدنا اتخاذ أي قرار صحيح في حياته مبني على شق واحد فقط من هذين الشقين المترابطَين. وما قرار اختيار الزوج أو الزوجة الصحيح إلا أن يأتي نتيجة لكليهما معاً. فلا الاعتماد على الميول والأحاسيس صحيح ولا الاعتماد الكلي على التفكير العقلاني صحيح أيضا. والزواج هو أولاً وأخيراً عهد مقدس يتعهَّد به شخصان متحابان منسجمان متفاهمان ومكمّلان أحدهما للآخر أمام الله وأمام الناس . وقرار اتحادهما لا يمكن أن يرتكز على العاطفة وحدها أو العقل وحده. بل يجب أن يكون للاثنين معاً شأن كبير في اتّخاذه.

لهذا نرى الكثير من البيوت تُهدم أمام أعيننا في كل يوم بسبب قرارات خاطئة اتُّخذت لحظة الوقوع في الهيام و الحب، أو في ساعة انجذاب العقل إلى العقل. وكثيراً ما اكتشف هؤلاء ولكن بعد فوات الأوان أن الحب لم يكن حقا حباً ، بل كان شهوةً عابرة ليس إلا، وأن العقل خُدع وانبهر بالمظاهر والمراكز والأموال التي غرَّرت به. "ولهذا كان سقوط ذلك البيت عظيماً." وكم من جبار عظيم سقط في امتحان الزواج هذا الرابط الذي يجمع القلبين والعقلين والنفسين معاً في اتحاد ووحدة وانسجام تام. لكن مهلا يا قارئي لنفكر لحظة واحدة فيما أراده الله تعالى لنا نحن البشر؟ نعم لماذا لا نعير كلمته الحية اهتمامنا اليومي؟ لماذا لا نتوجه إلى ما تعلمنا إياه الكلمة المقدسة؟

إن الله سبحانه وتعالى يوم خلق الإنسان خلقه على صورته ومثاله – بالطبع صورته المعنوية وليس الصورة المادية لأن الله روح وليست له صورة ولا جسد– خلقنا على صورته كشبهه إذ منحنا العقل المبدع الخلاّق وكذا الإرادة الحرة لنختار، ومنحنا الأحاسيس والمشاعر، لكي نستخدمهما معا في اتخاذ قراراتنا الحياتية و المصيرية . وبهذه الصفات ميَّزنا عن سائر المخلوقات لكي نعكس بالتالي صورته فينا وطبيعته في حياتنا. فكيف نختار إذن؟ هل نختار أن نسير على الأسس المتينة التي وضعها هو للزواج المقدس والطاهر في كلمته الحية المقدسة؟ أم نعصاه فنختار لأنفسنا وكما يحلو لنا؟

حقوق الطبع محفوظه لخدمة الاذاعه العربية ٢٠٠٦-٢٠٠٣
Copyright 2003-2006 Arabic Broadcasting Service

لفت نظري ما دونه التفسير التطبيقي للكتاب المقدس في هذا المنحى إذ قال: "عندما ندرك أن الله قد خلقنا على صورته تعالى كشبهه نعرف قيمتنا الحقيقية. وإدراكنا أننا أشخاص لها قيمة غير محدودة، يمنحنا الحرية أن نحب الله وأن نعرفه معرفة شخصية وأن نقدم خدمات لمن حولنا... لقد وضعنا الله كلانا على قمة خليقته تعالى." فهل ندرك حقا مركزنا وقيمتنا ونحسن الاختيار؟

ولا يزال الصوت يدوّي كما دوى في القديم عندما قال الله: "أُشهد عليك اليوم السماء والأرض، قد جعلت قدامك الحياة والموت، البركة واللعنة. فاختر الحياة لكي تحيا أنت ونسلك." (تثنية ٣٠: ١٩).

نعم حياتنا يا أصدقائي مليئة بالاختيارات. وتقع علينا مسؤولية كبيرة حينما نختار ، لأننا سنتحمل نتائج اختياراتنا. فهل نختار الحياة ؟ أم الموت؟ البركة أم اللعنة؟ إن الله يريدنا أن نختار الحياة لكي نحيا. فهل نفعل حقا؟ قال يسوع المسيح الفادي: أنا هو الطريق والحق والحياة. ليس أحد يأتي إلى الآب إلا بي. فهل تختاره لكي يكون هو الأول في حياتك؟ ومن ثم يمنحك هو الحكمة لتختار شريك حياتك المناسب لك أنت وحدك؟ فإذا فعلت فأنت قد أحسنت الاختيار ونِعْمَ الاختيار اختيارك.

حقوق الطبع محفوظه لخدمة الاذاعه العربية ٢٠٠٦-٢٠٠٣
Copyright 2003-2006 Arabic Broadcasting Service